مكتب المشرف العام
القسم العلمي

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف

إعداد القسم العلمي

مشاركة أ.د ناصر بن سليمان العمر

المشرف العام على موقع المسلم

www.almoslim.net

ضمن أوراق

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

بإشراف مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولة قطر

نشر في رمضان ١٤٢٣- نوفمبر ٢٠٠٢م

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف

أولاً: الإرث الحضاري التاريخي لجزيرة العرب:

إن لأهل الجزيرة العربية[1] ثروة تاريخية ثرة، وإرث حضاري يمتد عبر قرون بعيدة وأزمنة مديدة، يجب أن يستلهموا منه دروساً، وأن يأخذوا منه عبراً، للمضي بحضارتهم ورسالتهم قُدماً.

فجزيرة العرب بها أم القرى، وبيت الله الحرام، ومدينة النبي، ومسجده عليه الصلاة والسلام، وما بين البيت إلى المنبر، روضة من رياض الجنة[2]:

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد منيرٌ
وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمحي الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آيات وباقي معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد
به حجرات كان ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد آيها

---

[1] قال سماحة الشيخ بكر أبو زيد –حفظه الله- : "فيحدها غرباً بحر القلزم –والقلزم مدينة على طرفه الشمالي ويقال بحر الحبشة وهو المعروف الآن باسم البحر الأحمر، ويحدها جنوباً بحر العرب ويقال بحر اليمن، وشرقاً خليج البصرة الخليج العربي، والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم... و يحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي وما على مُسامَتتِهِ شرقاً؛ من مشارف الشام وأطراره [الأردن حالياً] ومنقطع السماوة من ريف العراق، والحد غير داخل في المحدود هنا" خصائص جزيرة العرب ص١٧-١٨ باختصار يسير. الطبعة الثانية ١٤١٨ دار ابن الجوزي.

[2] انظر صحيح البخاري حديث رقم ١١٩٥، وصحيح مسلم حديث رقم ١٣٩٠.

أتاهـا البلي فـالآي منـها تجـدد

وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن فيها المناسك والمشاعر، والمواقيت والمناحر:

إذا هَزَّنا الشـوقُ اضـطربنا لهـزه
على شُعُبِ الرحل اضطراب الأراقـم
فمـن صبــواتٍ تستقيــم بمــائلٍ
ومــن أريحيـــاتٍ تهُــبُّ بنائـمِ
وأَسْتَشْـرِفُ الأَعْـلامَ حتى يدلني
على طيبـها مَرُّ الرياحِ النواســمِ
وهـل أنسـم الأرواح إلاّ لأنهـا
تَهـبُّ على تلك الـربى والمعـالمِ؟

كما أنها جزيرة شِعرية، ذكرها الفحول في دواوينهم، فدرسها الشُرَّاح في مصنفاتهم، فإذا قرأتها وجدت زمزم و الحطيم، ووداً و أشداخ، ومدافع الريان، وشماريخ رضوى، وبرقة ثهمد، وحومانة الدراج ، وتقادمت فالجبس فالسوبان، وهجر وجواثا، وإضم والجواء، وتهامة والحجاز، والعروض واليمن، واليمامة والرميصاء بل أرض نجد كلها:

وإني وإن فارقت نجـداً وأهـله
لمحترق الأحشاء شوقاً إلى نجدِ
أروح على وجدٍ وأغدو على وجدٍ
وأعشق أخلاقاً خلقن من المجدِ

آخر:

أقول لصاحبي والعيس تخدي
بنا بين المنيفـة فالضمـــار

تمتع من شميم عرار نجـــــد

فما بعد العشيــــة من عــرار

ألا يا حبـــــذا نفحـــات نجد

وريا روضــه غب القطـار

(وربك) إذ يحــل الناس نجداً

وأنت على زمـانك غير زار

شهــور ينقضين وما شعرنا

بأنصـاف لهنّ ولا ســرار

ولو استطردنا بذكر شيء مما ورد في أشعارهم لطال المقال[٣]، فأي دار من ديارها ما وقفوا عليها؟ وأي أطلال دوارس ماهز بعضهم شوق إليها، وحسبك قول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

و فوق ذلك تجد في تلك المصنفات ذكر عشائر الجزيرة وقبائلها وخصائصهم، وأمور دقيقة متعلقة بهم.

وفضلاً عن ذلك فقد كان للحضارات القديمة فيها شأن عظيم بل إن أول الحضارات البشرية قامت بها وأَهَلتْها وذلك لمّا بنى آدم عليه السلام بيت الله الحرام[٤] فكان أول بيت وضع للناس

[٣] انظر في ذلك مثلاً صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ص 319 وما بعدها. طبعة دار اليمامة ١٣٩٧ بتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي.

[٤] ذكر ابن حجر في الفتح أقوالاً في أول من بنى البيت فذكر آدم والملائكة وشيث ابن آدم، ثم قال والأول أثبت، قال السيوطي في شرح سنن النسائي عند تعليقه على حديث:" سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أَيّ مَسْجِد وُضِعَ أولاً؟ قال: (المسجد الحرام). قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى). قُلْت: وكم بينهما؟ قال: (أَرْبَعُونَ عَامًا) قال القرطبي: فيه إشكال، وذلك أن المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام بنص القرآن، والمسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام، كما أخرجه النسائي من حديث ابن عمر، وسنده صحيح، وبين إبراهيم وسليمان أياماً طويلة، قال أهل التاريخ أكثر من ألف سنة. قال: ويرتفع الإشكال بأن يقال: الآية والحديث لا يدلان على بناء إبراهيم وسليمان –لِما بينّا– ابتداء وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما وبدأه، وقد روي: أول من بنى البيت آدم، وعلى هذا فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً. انتهى. قُلْت: بل آدم نفسه هو الذي وضعه =

ببكة مباركاً، وقد ذكر العليم الحكيم في القرآن الكريم عن حضارات الجزيرة العربية ما لم يذكره عن غيرها من الأمم والحضارات التي قامت في شتى البلدان والأقاليم فسادت ثم بادت.

ألا ترى أن جزيرة العرب، أرض معجزات نبوية، ومجال رسالات سماوية ، ففيها بلد سبأ، وسدُّ مأرب، وعرشٌ عظيم، وبئرٌ معطلة، وقصر مشيد، بل سائر بلاد عاد؛ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي، وأصحابُ الرس، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الأخدود، وقبر هود، ودعوة إبراهيم، وحجر صالح، ومدين شعيب، ومرتع إسماعيل، وملجأ موسى، ومهد محمد –صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين– ومثواه:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد[5]

ثم كانت أرض الجزيرة وطاءً لخير القرون وأديمها لحافاً لجُلِّهم بعد أن غيبوا تحت أطباق ثراها.

وشتان شتان بين قبر لأبي بكر وعمر، وآخر لخوفو وخفرع! بون واسع وفرق شاسع بين روضة من رياض الجنة وحفرة من حفر النار:

لئن تطاول بالأهرام منهزم فنحن أهرامنا سلمان أو عمر

ومع هذا كله فأرض الجزيرة العربية تشتمل على حدود جليلة، وكُوَرٍ جسيمة، فهي من أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ...﴾[6].

لحكمة بالغة قضاها يستوجب الحمد على اقتضاها

وقد فضل جزيرة العرب على ما سواها جمع ممن عنوا بالأقاليم والبلدان. قال الهمداني: "أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة الكبرى ... وتسمى جزيرة العرب"[7]، وقال القلقشندي: ".. بجزيرة العرب الواقعة في أواسط المعمورة وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه،

أيضاً، قال الحافظ ابن حجر في كتاب التيجان لابن هشام: إن آدم لما بنى الكعبة أمره الله –تعالى– بالسير إلى بيت المقدس، وَأَنْ يَبْنِيَهُ فَبَنَاهُ وَنَسَكَ فِيهِ" كتاب المساجد باب ذكر أي مسجد وضع أولاً، حديث رقم ٦٨٩، سنن النسائي بشرح السيوطي ٣٦٢/٢، الطبعة الخامسة لدار المعرفة، ١٤٢٠.

[5] البيت من مرثية حسان –رضي الله عنه– التي مطلعها: بطيبة رسم للرسول ومعهد.

[6] القصص: ٦٨.

[7] صفة جزيرة العرب ص٣، للهمداني.

حيث الكعبة الحرام .."[8]، قال المقدسي في أحسن التقاسيم: "وهي أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأفضلها تربة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً"[9].

فجزيرة العرب من أفضل البلاد وأشرفها قال الشيخ بكر أبوزيد: "كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ولهذه الجزيرة جملة أسماء؛ كلها مضافة إلى العرب لا غير"[10] وذكرها: [جزيرة العرب]، و[أرض العرب]، و [بلاد العرب]، و[وديار العرب]، و[الجزيرة العربية]، و[شبه جزيرة العرب]، [وشبه الجزيرة العربية].

ومما يدل على شرفها أيضاً كثرة ما صنف فيها، وقد أشار الشيخ بكر إلى شيء منها، ومما كُتب زيادة على ما ذكر[11]، والشأن هنا أيضاً في ذكر المؤلفات المفردة عن هذه الجزيرة على اختلاف مقاصد المؤلفين:

١. جزيرة العرب للأصمعي، يذكره من ترجم له.
٢. جزيرة العرب لأبي سعيد السيرافي، ذكره الباباني في هدية العارفين، وغيره.
٣. جزيرة الإسلام للشيخ سلمان العودة، مطبوع، وما يليه كذلك.
٤. جزيرة العرب مهد الحضارة الإنسانية، لمحمد معروف الدواليبي.
٥. مرآة جزيرة العرب، لأبي أيوب صبري باشا.
٦. السكان والاقتصاد والعمل قبل قرن في جزيرة العرب، أحمد اليحيى.
٧. جغرافية شبه جزيرة العرب، لمحمود أبو العلا.
٨. جغرافية جزيرة العرب، لعمر رضا كحالة.
٩. رحلات في شبه جزيرة العرب، لجون لويس بوركهات.
١٠. جزيرة العرب قبل الإسلام، لبرهان الدين دلو.
١١. تاريخ جزيرة العرب القديم وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، لعبدالله العثيمين.
١٢. وفود القبائل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، لحسن جبر.

[8] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص١٥، لأبي العباس أحمد القلقشندس، طبعة دار الكتاب المصري مع دار الكتاب اللبناني، بتحقيق إبراهيم الأبياري.

[9] أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٣٨، للمقدسي.

[10] انظر خصائص جزيرة العرب للشيخ بكر أبو زيد ص١٥، ومن أسمائها كذلك ما ذكره الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب ص٣؛ ألا وهو [الجزيرة الكبرى] وقد مضى نصه.

[11] انظر خصائص جزيرة العرب لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد –حفظه الله– ص١٢.

١٣. جزيرة العرب: مصير أرض وأمة، لمحمد ولد داداه.

١٤. شبه جزيرة العرب، لمحمود شاكر، وهو مجموعة كتب جعل لكل قسم أو أقسام منها كتاباً.

١٥. أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: جزيرة العرب، لمحمد عبدالهادي، وفاء محمد.

١٦. صور من شمالي جزيرة العرب: في منتصف القرن التاسع عشر، لجورج أوغست، ترجمة سمير الشبلي.

١٧. أرض المعجزات: رحلة في جزيرة العرب، لعائشة عبدالرحمن.

١٨. جزيرة العرب في العصر الحديث، لصلاح العقاد.

١٩. الجزيرة العربية: موطن العرب ومهد الإسلام، لمصطفى مراد الدباغ.

٢٠. لمحات عن تطور الفكر في جزيرة العرب في القرن العشرين، لفهد المبارك.

٢١. جزيرة العرب في القرن العشرين، لحافظ وهبة.

٢٢. النهضات الحديثة في جزيرة العرب، لمحمد عبدالله ماضي.

٢٣. مشاهداتي في جزيرة العرب، لأحمد حسين.

٢٤. اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من الحضارة والعلم، جاكلين بيرين، ترجمة قدري قلعجي.

٢٥. دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، لصباح إبراهيم الشيخلي.

وقد أغفلنا شيئاً مما كتب في جيولوجيتها وتضاريسها للاكتفاء بما ذكر، أما التسجيلات المرئية، والندوات، وما كتب في المجلات من مقالات متخصصة عن الجزيرة العربية فأكثر من أن تحصر، ولا أطيل بسرد بعضها ففيما سبق غنية وكفاية.

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف ٢-٦

ثانياً: جزيرة العرب وعلاقتها بفضل العرب:

سـل المعاني عنـا إنّنـا عـرب

شعـارنا المجـد يهـوانا ونهـواه

هي العروبة لفظ إن نطقت به

لقد قرر أهل العلم أن العرب هم "رأس الأمة وسابقوها إلى المكارم"[١٢] فهم "أفضل من العجم"[١٣] بل "أفضل من غيرهم"[١٤] بل "أفضل الأمم"[١٥] قاطبة،قال شيخ الإسلام: "ولهذا ذكر أبومحمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها: وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئا من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، فكان من قولهم أن الإيمان قول وعمل ونية، وساق كلاما طويلاً إلى أن قال: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم، لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حب العرب إيمان وبغضهم نفاق) ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرون بفضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف. ويروون هذا الكلام عن أحمد نفسه، في رسالة أحمد بن سعيد الأصطخري عنه إن صحت، وهو قوله وقول عامة أهل العلم"[١٦] وقال الكرماني أيضاً: "فالعرب أفضل الناس، وقريش أفضلهم، هذا

---

[١٢] نوادر الأصول في أحاديث الرسول ص١٠٦، لمحمد بن علي الحكيم الترمذي، طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

[١٣] انظر تفسير القرطبي ١/١٤١.

[١٤] السابق ٤/٢٦٣.

[١٥] انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٩/٣٧٩، لمحمد بن عبدالرحمن المباركفوري، طبعة دار الكتب العلمية.

[١٦] اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٤٨، لشيخ الإسلام ابن تيمية. وانظر كذلك ص١٥٦، وقد نسب القول بفضل العرب للجمهور في منهاج السنة النبوية ٤/٥٩٩.

مذهب الأئمة وأهل الأثر والسنة.."[17] قال شيخ الإسلام: "(إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة) الحديث، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح وهذا يقتضي أن إسماعيل وذريته صفوة ولد إبراهيم، فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحق، ومعلوم أن ولد إسحق الذين هم بنو إسرائيل أفضل العجم، لما فيهم من النبوة والكتاب، فمتى ثبت الفضل على هؤلاء فعلى غيرهم بطريق الأولى"[18] وقال قبلها: "فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم...وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي صلى الله عليه وسلم منهم، وإن كان هذا من الفضل بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أفضل نفسا ونسبا وإلا لزم الدور"[19]، وقد وضع المصنفون كُتباً وأجزاء في الدليل على فضل العرب فلتراجع[20].

وسر تفضيل العرب على من سواهم، هو ما تميزوا به من خصال حميدة، وأخلاق نبيلة ، كما قال الحكيم الترمذي: "فالعرب بالأخلاق شرفوا، وإلاّ فالشجرة واحدة وهو خليل الرحمن"[21] وقال الشيخ بكر: "فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها ... لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم"[22]، كما أنهم "أطوع للخير، وأقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء ... أصحاب إباء لا يعرفون التزلف والنفاق وتحمل الاستبداد.. ومما تميز به العرب الصدق، حتى الذين كانوا يحاربون الإسلام ظهر صدقهم في أمور"[23]. فيا لله كيف انتكست بعد ذلك الفطر وتغيرت العقول ففتن بعضنا بحضارة غربية قاصرة على جوانب قاصرة فيها ما فيها، واسْتَبْدَل –يوم اسْتَبْدَل– شرها بمكارم حضارة عريقة.

إن المكارم قد قلت مواليها ... مولى المكارم يرعاها ويعمرها

[17] انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ٥١٥/٤، لعبد الرؤوف المناوي، الطبعة الأولى للمكتبة التجارية الكبرى.

[18] انظر اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام بن تيمية، ١٥٤/١، الطبعة الثانية لمطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

[19] السابق ١٤٨/١.

[20] لابن القيم –رحمه الله– فصل في الدليل على فضل العرب، وللمقدسي مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، وللهيتمي مبلغ الأرب في فخر العرب، اختصره الهيتمي من كتاب حافل للحافظ العراقي.

[21] انظر نوادر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبدالله الحكيم الترمذي ص٩٦.

[22] خصائص جزيرة العرب ص٦١، للشيخ بكر أبو زيد. مع اختصار يسير.

[23] جزيرة الإسلام ص٤٢–٤٦، للشيخ سلمان بن فهد العودة، والنقل باختصار وتصرف يسير.

ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذا التفضيل ينبغي أن يراعى عند النظر إليه أمران:

الأول: أن النظرة هنا إلى طبائع الشعوب والأجناس مجردة عما تأثرت به من أمور خارجة عنها، فمن استصلح بالشرع والدين يفضل من سواه ويعلوه بقدر ما قام فيه من دين. ومَن فضّلَ العرب إنما فضلهم لمكارم الأخلاق التي اتصفوا بها، وجاءت الشرائع بتميمها، فإذا التزم الناس بالشرائع فلا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى، والأصل أن الناس معادن[٢٤].

الثاني: أنه وصف عام وعند التفصيل ومقارنة الأفراد يشذ بعضهم، فقد تجد شخصاً من العجم يفضل بعض العرب في أخلاقه وصفاته، ولكن عند الإطلاق والتعميم فالعرب أفضل ممن سواهم.

والشاهد من هذا التقرير هو أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والأرض التي ينشأ عليها لها صلة وثيقة بأخلاقه وعاداته، وقد عرفت العرب هذه العلاقة منذ زمن بعيد، ولهذا كانوا يدفعون أولادهم إلى المراضع "لينشأ الطفل في الأعراب ، فيكون أفصح للسانه وأجلد لجسمه وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية وقد قال – عليه السلام – لأبي بكر – رضي الله عنه – حين قال له: "ما رأيت أفصح منك يا رسول الله". فقال: (وما يمنعني ، وأنا من قريش ، وأرضعت في بني سعد ؟) فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات . وقد ذُكِر أن عبد الملك بن مروان كان يقول أضر بنا حُب الوليد لأن الوليد كان لحّاناً، وكان سليمان فصيحاً؛ لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية، فتعربوا، ثم أدبوا فتأدبوا"[٢٥]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فرق بين من يتقلب في عيش لين الأعطاف رطب، وبين آخر تربى في بيئة شديدة وعرة، فذلل شظف العيش وركب صعبه، وقد قيل:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد   ليجيء كل مسلم أسد

[٢٤] جزء من حديث الصحيحين، انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) ٣٣٨١، وصحيح مسلم رقم ٢٥٢٦.

[٢٥] انظر الروض الأنف، لعبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، شرح حديث الرضاع ١/١٨٨، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

فإذا شرف العرب لأخلاقهم وصفاتهم فالبيئة [الجزيرة العربية] هي التي ساعدت في صنع كثير من تلك الأخلاق والخصال التي تميز بها العرب[٢٦]، ولهذا كانت الجزيرة العربية أفضل من غيرها.

وإني وإن فارقت نجـداً وأهـله   لمحترق الأحشاء شوقاً إلى نجدِ
أروح على وجدٍ وأغدو على وجدٍ   وأعشق أخلاقاً خلقن من المجدِ

[٢٦] ذكر الشيخ بكر أبو زيد في كتابه خصائص الجزيرة ص٦٣-٦٦ ستاً وعشرين ميزة للعرب وجزيرتهم نقلاً عن كتاب أم القرى فلتراجع.

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف ٣-٦

ثالثاً: تعلق العرب في شتى الأمصار بأرض الجزيرة:

ولا يخفى على القارئ الكريم أن العرب الأصليين الذين تفرقوا في شتى الأمصار أصولهم من الجزيرة العربية وإن بَعُد العهد، وهذا ما قرره من عنوا بالتقاسيم والأقاليم، وغيرهم من المحققين، قال القلقشندي: "اعلم أن مساكن العرب في ابتداء الأمر، كانت بجزيرة العرب"[٢٧]، وهو قول المعاصرين من الباحثين في هذا الحقل، قال المقريزي: "و لا خلاف بيننا في أن هذه القبائل العربية التي ملأت الأقطار العربية على اتساع رقعتها، قد انبعث كلها بطبيعة الحال من مهدها الأول وهو شبه الجزيرة العربية"[٢٨]، وقال: "وليس من شك في أن المستودع الأول في شبه الجزيرة العربية الذي أمد شطري الوادي بالعناصر العربية منذ عصور الجاهلية، هو نفسه الذي أمد بلاد المغرب كلها في أفريقية، وبلاد الشام والعراق في آسيا.."[٢٩].

قال شيخ الإسلام :".. وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وإلى سواحل الشام وأرمينية وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم ثم انقسمت هذه البلاد قسمين منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره ... ومنها ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبة عليهم .. فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداء وما هو عربي انتقالا وإلى ما هو عجمي وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لسانا ودارا أو لسانا لا دارا أو دارا لا لسانا وقوم من نسل العرب بل من نسل بني هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم وهم أكثر الناس اليوم "[٣٠]

والمقصود أن أصول العرب في مشارق الأرض ومغاربها ترجع إلى الجزيرة العربية في كثير من الأحيان، وهذا بدوره يجعل للجزيرة العربية في كثير من القلوب مكاناً وقد قيل:

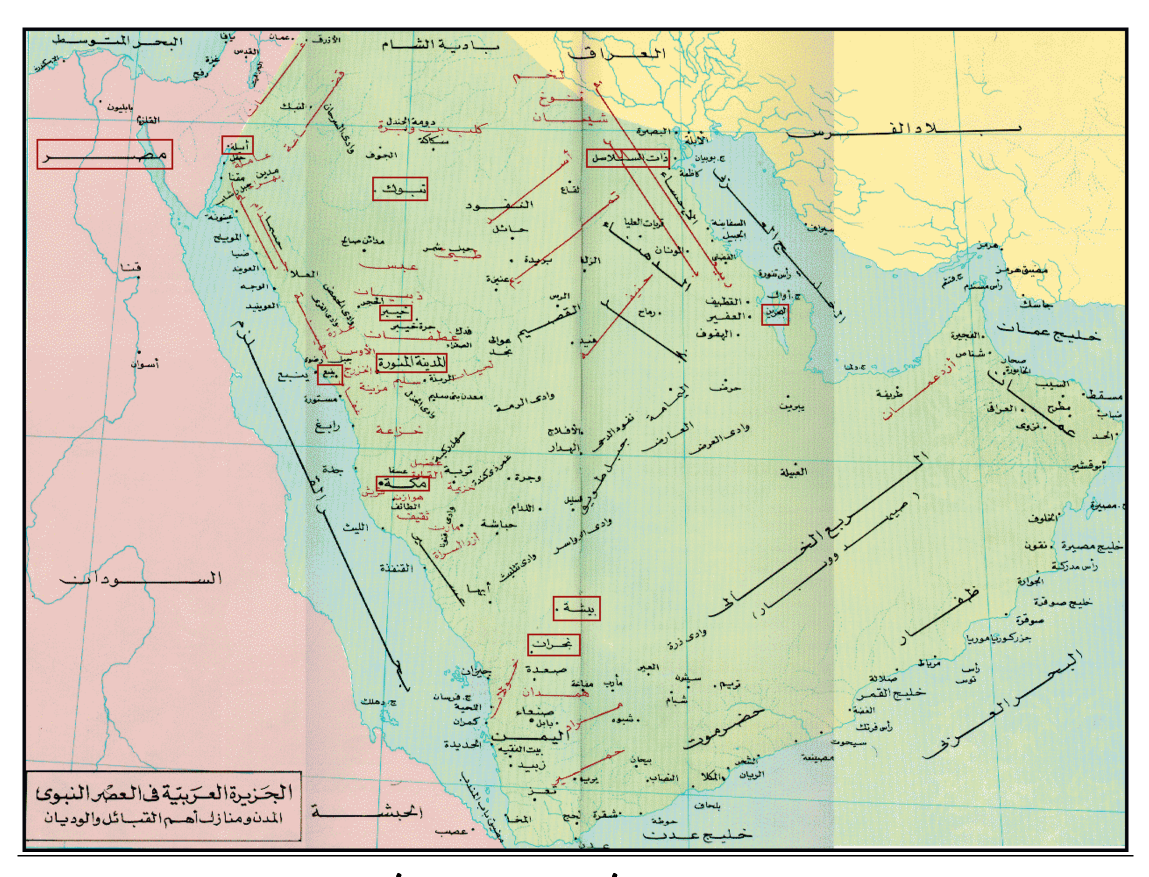
[٢٧] نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص15.

[٢٨] البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص٧٤، للمقريزي.

[٢٩] السابق ص ٩٥.

[٣٠] اقتضاء الصراط المستقيم ١/١٦٦-١٦٧ باختصار.

نَقِّل فـؤادك حيث شئت من الهوى		مـا الحـب إلاّ للحـبيب الأول
كـم منزل في الأرض يألفه الفتى		وحنينـه أبـد الأول منــزل
وقبيح بنا وإن قدم العهد		هوان الآباء والأجداد



قبائل العرب وتواجدها في الجزيرة العربية في العصر النبوي

جزيرة العرب مهوى أفئدة المسلمين:

وعـيرني الواشـون أني أحـبها وتلك شكاة زائل عنك عارها

لمّا كانت الجزيرة مهبط الوحي وسابقة الأراضي للإسلام –فما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح الله عليه سائر الجزيرة العربية[31] لمّا كان الأمر كذلك عظمت مكانة الجزيرة في قلوب المسلمين جميعاً عرباً وعجماً، ولاغرابة فهي التي مدت البقاع والأصقاع بالإسلام، فلا عجب إذا قرأت في بعض التراجم، عن بعض أهل العلم من الأعاجم، أنه كان: "واسع الاطلاع بشئون العالم الإسلامي، شديد التعلق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين، عميق الحق، شديد التعظيم للنبي –صلى الله عليه وسلم، وأصحابه وأهل بيته– شديد الحب للعرب، يسوؤه ويؤلمه ذمهم وانتقاص حقهم وفضلهم، خبيراً بجغرافية الجزيرة العربية، ألف كتاباً باللغة العربية في هذا الموضوع في شبابه"[32].

وكيف لا يكون للمسلمين في المشارق والمغارب تعلق بها وهم يتوجهون تلقاءها في الخمسة الأوقات. وقد قال قائلهم إقبال:

نحـن الذين إذا دعـوا لصـلاتهـم والحرب تسقي الأرض جاماً أحمرا

جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبروا بمسامع الـروح الأمين فكـبرا

وهذا التَعَلُّق نلحظه في كثير من العجم وبخاصة في شبه القارة الهندية، فتراهم يكبرون ويجلون من عرفوا أنه من أرض العرب، وهذا كثير فيمن عنوا بالشرع والدين، ولاسيما من لم يعش منهم بأرض الجزيرة، وأما من عاش فيها فكثير منهم تغيرت نظرته إما لاختلاف واقع أحفاد أبي بكر وعمر وسائر الصحابة– عمّا في مخيلته، أو نتيجة معاملة وأخلاقٍ ليست بأخلاق أهل هذه البلاد، ولكنها أخلاق حضارات وافدة فتحت لها الصدور فتطاير شررها واستشرى شرها.

---

[31] انظر التماس السعد في الوفاء بالوعد للسخاوي ص٣، وكذلك أسد الغابة لابن الأثير ص٦٠٢ ترجمة حبة بن بعكك.

[32] نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ص١٩١٧، لعبد الحي اللكنوي، والكلام هنا عن ابنه عبدالعلي بن عبدالحي.

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف ٤-٦

رابعاً: جزيرة العرب ودعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

ومن مميزات جزيرة العرب التي جعلتها ذات حضارة رائدة متميزة، قيام دعوة إبراهيم عليه السلام بها:

هي الحنيفية عين الله تكلؤها   فكلما حاولوا تشويهها شاهوا

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)[٣٣] (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)[٣٤]، فاستجاب الله دعوته؛ وجعل في نسله من الأنبياء من يقوم بدعوة الحنيفية يحوطها ويرعاها ويتممها، فكان إسماعيل عليه السلام أبا العرب، ورسولهم، والمجدد الأول لملة إبراهيم –عليه السلام– وعن بنيه انتشرت بقايا الحنيفية في سائر أرجاء الجزيرة العربية، وصارت الحنيفية الديانة الرسمية لشبه الجزيرة العربية.

ولقد ظل العرب رواد حضارة نبوية مجيدة ردحاً من الزمن، ثم تقادمت بهم السنون، اندرست معالم حضارة التوحيد شيئاً فشيئاً، إلى أن جاء عمرو بن لحي الخزاعي واستورد عبادة الأصنام عن دين العماليق بأرض الشام[٣٥]، قال صلى الله عليه وسلم: (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار)[٣٦]، وأورد "ابن إسحاق في السيرة الكبرى ... أتم من هذا ولفظه: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول لأكثم بْن الْجَوْن: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، لأنه أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وسَيَّبَ السَّائِبَة وَبَحَّرَ الْبَحِيرَة وَوَصَلَ الْوَصِيلَة وَحَمَى الْحَامِي)"[٣٧]، وقال و" قال هشام وحدثني أبي وغيره أن إسماعيل عليه السلام لما سكن مكة وولد بها أولاده فكثروا حتى ملئوا مكة ونفوا من كان بها من

[٣٣] البقرة: ١٢٦.

[٣٤] إبراهيم: ٣٧.

[٣٥] انظر فتح الباري لابن حجر كتاب المناقب حديث رقم ٣٥٢٠، ٦/٦٦٩، طبعة دار السلام ١٤٢١.

[٣٦] صحيح مسلم حديث رقم ٢٨٥٦.

[٣٧] فتح الباري لابن حجر كتاب المناقب حديث رقم ٣٥٢٠باختصار يسير.

العماليق ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضا فتفسحوا في البلاد[38] والتماس المعاش فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلاّ احتمل معه حجراً من حجارةِ الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت حبا للبيت وصبابة به، وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقى من ذكرها فيهم، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم فيه ما ليس منه"[39].

غير أنه بقيت فيهم قلة على الحنيفية مستقيمون، كأمثال زيد بن عمرو بن نفيل، قال ورقة بن نوفل –وهو كذلك من المتألهين قبل البعثة دارساً للكتاب– في رثائه:

رَشَدت وأنعمت بن عمروٍ وإنما		تجنبت تنوراً من النار حامياً
بدَينك رباً ليس رب كمثله		وتركك أوثان الطواغي كما هيا

إلى قوله:

فأصبحت في دار كريم مُقامها		تُعَلَّلُ فيها بالكرامةِ لاهياً
تُلاقي خليلَ الله فيها ولم تَكُنْ		من النّاس جباراً إلى النار هادياً
وقد تُدرِكُ الإنسان رحمة ربه		ولو كان تحت الأرض سبعين وادياً

وقد كان زيد يلتمس الحنيفية ملة إبراهيم، " فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب إبراهيم ؛ وبادى قومه بعيب ما هم عليه"[40].

وقد ثبت في صحيح البخاري "أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالما من اليهود، فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني.

---

[38] في نهاية هذا المبحث خارطة تبين تواجد العرب في الجزيرة قبل البعثة ص١٤.

[39] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ٢/٢١٠، لابن القيم، بتحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي١٣٥٧.

[40] السيرة النبوية لابن هشام ١/٢٥٣-٢٥٤، الطبعة السابعة لدار الكتاب العربي ١٤٢٠.

فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال: زيد ما أفر إلاّ من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا أبداً، وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلاّ من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبداً، وأنَّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام، خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم. وقال الليث كتب إلي هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها أنا أكفيكها مئونتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مئونتها"[٤١]

ومن المتألهين قبل البعثة أيضاً أمية بن أبي الصلت الثقفي وهو القائل:

إنَّ آيات ربنا ثاقباتٌ لا يماري فيهنَّ إلاّ الكفورُ

كل دينٍ يوم القيامةِ عند اللـ ـــه إلاّ دين الحنيفة بورُ

وكان يرى ما آل إليه حال أهل الكتاب من الضلال ومن ذلك قوله:

فرأى الله حالهم بمضيعٍ لا بذي مَزْرَعٍ ولا مَثْمُورا

فسناها عليهم غاديات وترى مُزنهم خَلايا وخُورا

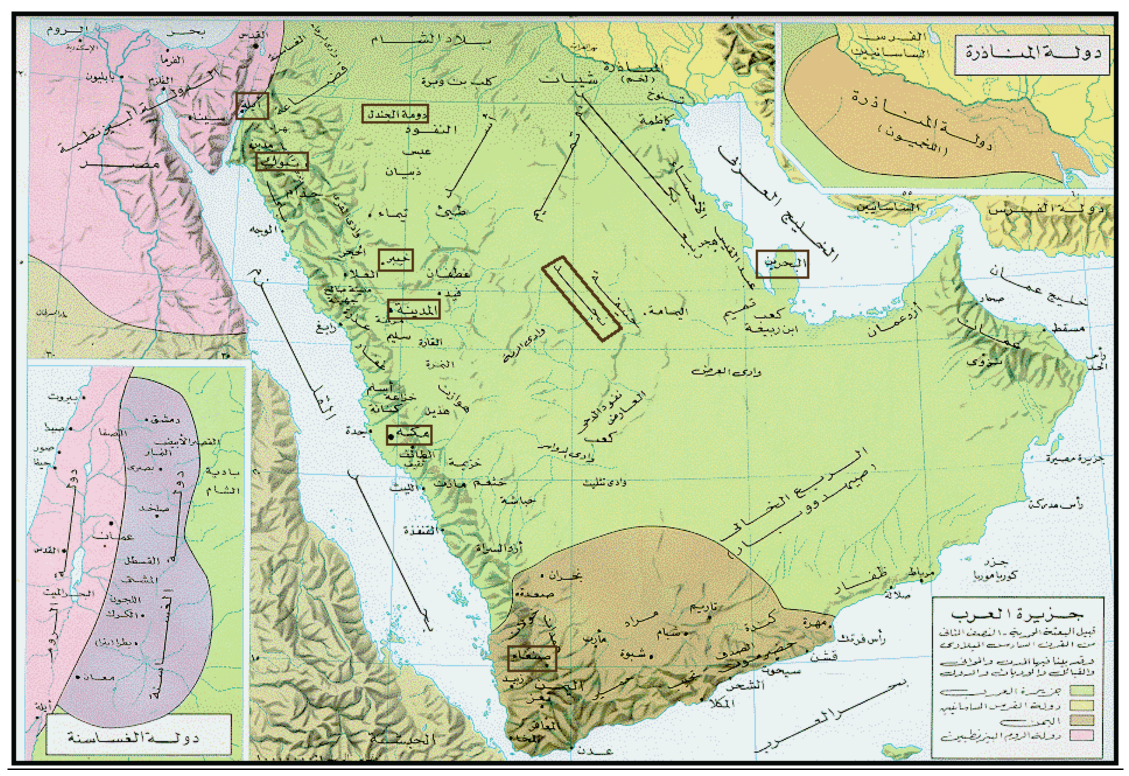
إلى آخر ما قال، غير أنه لم يسلم بعد البعثة النبوية حسداً من عند نفسه. وما مضى يدل على بقايا سمحة كانت عند العرب، صقلت أذهانهم وجلت أبصارهم ليروا زيغ النصارى واليهود وما آلو إليه.

والخلاصة أن دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالإضافة إلى الجانب الروحي الذي عمرته بالعبادات التي شرعتها والشعائر والمناسك التي تركتها وبقيت آثارها إلى حين البعثة النبوية الشريفة، فقد أرست دعائم حضارة فذة، في مجالات الحياة كلها، وقد كان لها أثر كبير على

[٤١] صحيح البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٢٨.

العرب وما تميزوا به من كريم خصال وحسن أخلاق، فلئن كان في العرب صدق ووفاء فإن أباهم كان صادقاً، (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً)[42]، ولئن كان في العرب صبر وجلد فإن أباهم قال عند الذبح (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[43]، ولئن كانوا يجيدون القتال والرمي بالنبال فإن أباهم كان رامياً[44]، ولئن كانوا فرساناً فإن أباهم أول من ذللت له الخيل[45]، ولئن كان فيهم كرم فجدهم مالبث أن جاء بعجل حنيذ.

ثم لمّا ضاعت هويتهم الحنيفية السمحة، ذهبت حضارتهم، وأمسوا في شر حال كل عام يرذلون، وبالمقابل فقد سطعت شمس القياصرة، وتأججت نار الأكاسرة.



جزيرة العرب قبل البعثة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

---

[42] مريم: ٥٤.

[43] الصافات: ١٠٢.

[44] في حديث البخاري وغيره: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً) انظر الصحيح كتاب الجهاد باب التحريض على الرمي حديث رقم ٢٨٩٩.

[45] انظر أخبار مكة ٤/١٨٩، لمحمد بن إسحاق الفاكهي، الطبعة الأولى لمكتبة النهضة الحديثة ١٤٠٧ بتحقيق عبدالملك بن دهيش.

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف ٥-٦

خامساً: جزيرة العرب ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام:

جرت سنة الله القاضية بإهلاك المكذبين الظالمين، في أصحاب الحضارات السابقة من الأمم التي خلت في أرض الجزيرة. وذلك لمّا بطرت معيشتهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتفاقم ظلمهم، (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ)[٤٦]، (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)[٤٧]، (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ)[٤٨] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ لأَعأَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ)[٤٩]، (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً)[٥٠].

إن من سنن الله عزوجل في هذه الحياة أن جعل لكل بداية نهاية، فمع اليوم غداً، وبعد الحدث جدثاً، ولكل مولود يوم موعود، وهذه سنة الله في الذين خلو من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فكم من حضارة قامت وازدهرت ثم ما لبثت أن تبدلت وتبددت. ولكن جعل الله لهذه السنن أسباباً ونواميس وقوانين؛ حتى يسهم البشر في صنعها؛ في تقديمها و تأخيرها، بحسب علمهم وحلمهم. وحتى يكون الجزاء من جنس العمل، فيقال يداك أوكتا وفوك نفخ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

[٤٦] الحج: ٤٥.

[٤٧] القصص:٥٨.

[٤٨] الأنبياء: ١١- ١٥.

[٤٩] الأعراف: ٩٦ – ٩٨.

[٥٠] الطلاق: ٨ – ١٠.

وهكذا لمّا اندرست معالم التوحيد في أرض الجزيرة وترك الناس ملة الحنيفية خلا نفر قليل، واجتالت الشياطينُ البشرَ فتاهوا بين وثنية جائرة، ومجوسية فاجرة، ويهودية مدمرة، ونصرانية حائرة، (وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب)[٥١]. أمست حضارة العرب في حضيض وغدو في شر حال[٥٢] وآذن الناس بهلاك، ولكن اقتضت رحمة الله أن ينبثق فجرٌ وأن يُبعث رسولٌ يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم:

لمّا أطل محمدٌ زكت الربى   واخضر في البستان كل هشيم

فألف الله به بين الشمل وجمع به بين القلوب وعصم به من كيد الشيطان.

واقتضت حكمته أن تكون أرض النبوة الخاتمة والرسالة العالمية الخالدة هي أرض الجزيرة العربية. ليبلغ أهلها رسالة ربهم إلى الناس كافة "فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها .. لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم. فهم بالوصف الأول: أهل لفهم الدين وتلقيه. وبالوصف الثاني: أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه. وبالوصف الثالث: أهل لسرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة... وبالوصف الرابع: أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى"[٥٣].

ومن رعاية الله لهذه الجزيرة وأهلها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه سائرها.

ومن عناية النبي صلى الله عليه وسلم بها أنها كانت وصيته قبل موته عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ".. وأوصى عند موته بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب .."[٥٤]

---

[٥١] جزء من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه وهو عند مسلم برقم ٢٨٦٥.

[٥٢] عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: " لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل" رواه الإمام أحمد في المسند ٢٦٨٤ ومن الميمنية٦/٣، ورجاله ثقات قال ابن كثير في التفسير ٣٣١/٣ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه. وساقه الطبري بسنده في التفسير ٥٣/١٩ من رواية محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، وراه ابن حبان في صحيحه ٤٨٩/١٤ والطبراني في المعجم الكبير ٢٥٣/٢٠، والبخاري في الأدب المفرد ٤٤/١.

[٥٣] خصائص جزيرة العرب ص٦١، للشيخ بكر أبو زيد. مع اختصار يسير.

[٥٤] صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب هل يستشفع إلى أهل الذمة رقم ٣٠٥٣.

وفي صحيح مسلم عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً)[٥٥]. ومن ثمرة تلك الرعاية الإلهية والعناية النبوية ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم)[٥٦].

ومن لطف الله بهذه الجزيرة وأهلها، أنه قصم فئاماً من الظالمين اعتدوا فيها، (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ)[٥٧]، (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)[٥٨]

الغدر أهلك عاداً في منازلها والبغي أفنى قروناً دارها الجُنُد

من حمير حين كان البغي مجهرة منهم على حادث الأيام فانجردوا

وهذه سنة الله الباقية..

فمن موعود الله لنا ما ثبت في حديث أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم) قالت: "قلت يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم" قال: (يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم)[٥٩]

ولا مجال هنا للحديث عن حضارة الإسلام وكم سادت من قرون وكيف انتكس أهلها لمّا تخلو عنها، فإن النهار لا يحتاج إلى دليل، والمعروف لا يعرف، وما كتب أكثر من أن يحصر.

بالله سَلْ خلف بحر الروم عن عرب بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا

[٥٥] صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب حديث رقم ١٧٦٧.

[٥٦] صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس. حديث رقم٢٨١٢.

[٥٧] سورة الفيل.

[٥٨] هود: ٥٩ – ٦٠.

[٥٩] صحيح البخاري رقم ٢١١٨، ومسلم رقم ٢٨٨٢.

فإن تراءت لك الحمراء عن كثب فسائل الصرح أين المجد والجاه
وانزل دمشق وخاطب صخر مسجدها عمن بناه لعل الصخر ينعاه
وطف بغداد وابحث في مقابرها علَّ امرئ من بني العباسِ تلقاه
أين الرشيد وقد طاف الغمام به فحين جاوز بغداد تحداه
هذي معالم خرس كل واحدة قامت خطيباً فاغراً فاه
ماض نعيش على أنقاضه أَمَمَا ونستمد القوى من وحي ذكراه
لا در در امرئ يطري أوائله فخراً ويطرق إن ساءلته ما هو؟

والحاصل أن لأهل هذه الجزيرة مقوم من مقومات ظهور حضارتهم ألا وهو أس الحضارة وأساسها ذلك هو الإسلام، الذي وطئ كل أرض فدخل كل قلب صالح. ولئن سمعنا بأن بعض الدول الإسلامية نسبة المسلمين إلى المائة فيها مئوية، فأي دولة أعجمية –أياً كانت حضاراتها– لاوجود لمسلم فيها؟ وهذا دليل على قوة حضارة الإسلام ونفوذها. وبيان جلي عملي يؤكد صلاحها لأي زمان وفي كل مكان.

والإسلام باق، والتجربة التاريخية في القيادة الحضارية شاهدة ماثلة، والمقومات المادية موجودة، فإذا جمعنا هذه الثلاث واستفدنا منها كانت حضارتنا الأجدر بالسيادة والريادة، كما كانت في سابق عهدها.

جزيرة العرب بين التشريف والتكليف ٦-٦

سادساً: وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون - ثم المراجع:

إن هذا القرآن شرف للعرب إذ نزل بلغتهم (قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ...)[٦٠] (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً...)[٦١] (وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً...)[٦٢]، (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً...)[٦٣].

وكيف لا يكون خطاب رب العالمين إلى كافة المكلفين عرباً وعجماً شرفاً للعرب، وقد جاء بلغتهم دون سواهم؟ (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ...)[٦٤] قال القرطبي: "يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم نظيره: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم) أي شرفكم فالقرآن نزل بلسان قريش وإياهم خاطب فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم كل من آمن بذلك فصاروا عيالا عليهم لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عنى به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات ولذلك سمي عربيا"[٦٥]

وعلى قدر التشريف يأتي التكليف، ولهذا قال بعدها (وَسَوْفَ تُسْأَلونَ)[٦٦]، " أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له"[٦٧] فأفهم الناس له، ينبغي "أن يكونوا أقوم الناس به، وأعلمهم بمقتضاه وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم"[٦٨].

---

[٦٠] الزمر: ٢٨.

[٦١] يوسف: ٢.

[٦٢] الأحقاف: ١٢.

[٦٣] الرعد: ٣٧.

[٦٤] الزخرف: ٤٤.

[٦٥] تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/٩٣، طبعة دار الكتاب العربي ١٣٨٧.

[٦٦] الزخرف: ٤٤.

[٦٧] تفسير ابن كثير ٤/١٣٠، طبعة دار الفكر ١٤٠٧.

[٦٨] السابق ٤/١٢٩.

فمن قام بهذا التكليف استحق الذكر والتشريف، وبالمقابل من نبذ الرسالة وضيع الأمانة عاد عليه القعود عن التكليف بالتوبيخ والتعنيف، وكان معرضاً للوعيد والتهديد، ولعل من مناسبة قول الله عز وجل: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ) بعد قوله: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ)[٦٩]، الإشارة إلى أن القعود عن القيام بالذكر ظلمٌ عاقبته وخيمة قصمت مدناً وقرى وحضارات أترفت فغدا أهلها حصيداً خامدين.

فواجب على أهل الجزيرة، منبع العرب، ومشرق الإسلام، أن ينهضوا بحضارتهم، وألا يغفلوا عن تبليغ رسالات ربهم، فقد آتاهم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين، وفضلهم على كثير من المخلوقين، (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ)[٧٠]، (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)[٧١]، ومن ينهض بالتكليف يناله حظه من التشريف، ولن ينسى التاريخ صلاح الدين، ومحمود بن سبكتكين.

لاهـم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً ... فامنن علينا براع أنت ترضاه

راع يعيد إلى الإسلام سيرته ... يرعى بنيه وعين الله ترعاه

حرر في

يوم الأربعاء ١٤٢٣/٢/١١هـ

[٦٩] الأنبياء: ١٠.

[٧٠] الأنعام: ٨٩.

[٧١] الأنعام: ١٣٣.

ثبت المراجع

البعد الرسالي لدول مجلس التعاون: المحور الأول

بالإضافة إلى القرآن الكريم وكتب السنة تم الرجوع إلى الكتب التالية:

الرقم	اسم الكتاب	المؤلف	الطبعة	ملاحظات
.١	خصائص جزيرة العرب	بكر أبوزيد	دار ابن الجوزي الطبعة الثانية ١٤١٨-١٩٩٧	-
.٢	جزيرة الإسلام	سلمان العودة	دار الوطن ١٤١١	-
.٣	صفة جزيرة العرب للهمداني	الهمداني	دار اليمامة ١٣٩٧	بتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي
.٤	فتح الباري	ابن حجر	دار السلام ١٤٢١	-
.٥	شرح سنن النسائي	السيوطي	دار المعرفة الطبعة الخامسة ١٤٢١	-
.٦	نوادر الأصول في أحاديث الرسول	الحكيم الترمذي	المكتبة العلمية بالمدينة المنورة	-
.٧	تفسير القرطبي	القرطبي	دار الكتاب العربي ١٣٨٧	-
.٨	تحفة الأحوذي	المباركفوري	دار الكتب العلمية- بيروت	-
.٩	اقتضاء الصراط المستقيم	شيخ الإسلام	الثانية- مطبعة السنة المحمدية- القاهرة ١٣٦٩	-
.١٠	منهاج السنة النبوية	،،	الأولى- مؤسسة قرطبة ١٤٠٦	-
.١١	فيض القدير	المناوي	الأولى- المكتبة التجارية الكبرى- ١٣٥٦- مصر	-
.١٢	الروض الأنف	السهيلي	مكتبة الكليات الأزهرية	-
.١٣	نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب	القلقشندي	دار الكتاب المصري مع دار الكتاب اللبناني	بتحقيق الأبياري
.١٤	البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب	المقريزي	-	نقلاً عن موقع الوراق
.١٥	التماس السعد في الوفاء بالوعد	السخاوي	-	،،
.١٦	نزهة الخواطر وبهجة المسامع والناظر	اللكنوي	-	،،
.١٧	أسد الغابة	ابن الأثير	-	،،
.١٨	إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان	ابن القيم	مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧	بتحقيق محمد حامد الفقي
.١٩	سيرة ابن هشام	ابن هشام	دار الكتاب العربي الطبعة السابعة ١٤٢٠	-
.٢٠	أخبار مكة	الفاكهي	مكتبة النهضة الحديثة الطبعة الأولى ١٤٠٧	بتحقيق عبدالملك بن دهيش
.٢١	تفسير ابن كثير	ابن كثير	دار الفكر بيروت ١٤٠٧	-